https://www.doi.org/10.31918/twejer. 21lich.6

e-ISSN (2617-0752) p-ISSN (2617-0744)

"عالمية اللغة" في حضارة الشرق الأدنى القديم
(اللغة الأكّدية نموذجاً)

د. عمر أحمد محمود
مركز البحث العلمي في جامعة سوران

م. صلاح الدين باقي حسين
كلية الآداب – جامعة سوران

مخلص البحث:

ازدهرت في جنوب بلاد الرافدين الحضارة السومرية، وكان من أهم نتاجها الحضاري اختراع الكتابة المسمارية في نهاية الألف الرابع ق.م. غير أن نفوذ الأكّديين بدأ بالازدياد، وتمكنوا من السيطرة على بلاد سومر، ولاسيما من خلال ملكهم شاروكين (٢٣٧١-٢٣٥٠ ق.م)، ووجدت اللغة الأكدية طريقها إلى السيطرة أيضاً فباتت اللغة الرسمية في العلاقات السياسية فضلاً عن الشؤون الإدارية. استمر الوضع على هذا النحو نحو قرن من الزمن إلى أن عاد السومريون إلى واجهة السلطة من جديد وتمكنوا من إنهاء النفوذ الكوتي في بلاد سومر في حدود (٢١٣٠ ق.م)، وبدأ عصر الإحياء السومري مع امبراطورية أور الثالثة، لتنتعش اللغة السومرية مرّة أخرى وتستعيد مكانتها إلى جانب اللغة الأكدية. ومع سيطرة الأموريين المتحدثين باللغات السامية على مقاليد الأمور في بلاد الرافدين، استعادت اللغة الأكدية (بلهجاتها المختلفة) هيمنتها، وفرضت نفسها كلغة للعلاقات السياسية، والمراسلات الدبلوماسية في الشرق الأدنى القديم.

يتناول هذا البحث بالوصف والتحليل الظروف التي تهيأت لهذه اللغة لتتبوّأ الصدارة في المنطقة، وأهم العوامل التي ساهمت في انتشارها وامتداد بريقها. كما يرصد البحث ملامح الصراع اللغوي الذي ربما يكون قد احتدم بين الأكدية واللغات المعاصرة لها.

الكلمات الدّالة: اللغة الأكدية، عالمية اللغة، اللغات السامية، الشرق القديم، بلاد الرافدين.

المقدمة

إن اللغة تعتبر من أهم وسائل الاتصال بين الأفراد والمجتمعات، وهي بالتالي القناة التي يتم من خلالها التأثر والتأثير الثقافي والحضاري بين الشعوب. وتشغل دراسة العلاقة بين اللغة والفضاء الجغرافي حيزاً مهماً في الدراسات اللغوية، وقد تم الاهتمام كثيراً بالبعد المكاني للغة، أي على توزيع اللغة في الفضاء الجغرافي.

ويتوقف ازدهار اللغة على عوامل ديموغرافية واجتماعية معينة. كما يعتمد طول عمر اللغة على حيويتها، فكلما زادت حيوية اللغة كلما كان من الممكن ضمان استمراريتها؛ وكلما قلّ ذلك قلت فرصتها في البقاء والازدهار. وتلعب عوامل أخرى هامة كاللغوية والثقافية، والسياسية، والعسكرية، والاقتصادية دوراً رئيسياً في هذا الازدهار.

وإذا كانت اللغة العالمية تعني بأنها اللغة التي يتم التحدث بها واستخدامها على نطاق واسع في دولة أو عدة دول، ولها قواعد ومفردات واضحة؛ فإن اللغة الأكدية قد دخلت إلى "عالمية اللغة" من أوسع أبوابها. وهكذا، يبدو بأن ظاهرة "عالمية اللغة" قد وُجدت منذ العهود القديمة ولا سيما في بلاد الرافدين، منبع وموطن العديد من الحضارات الإنسانية. حيث كرّست اللغة الأكدية هيمنتها، وبسطت سلطتها على مناطق شاسعة من الشرق الأدنى القديم، لتتحول إلى وسيلة التخاطب الدوليّ، ولغة "الدبلوماسية" العالمية، والقناة التي اتخذتها الثقافة الرافدية لتخطي الحدود والعبور إلى أقاصي العالم القديم.

ولاشكّ أن لهذا البحث أهمية خاصة من حيث كونه يسلط الضوء على إحدى أقدم اللغات المكتوبة المعروفة عبر التاريخ، والتي كان لها شأن كبير ودور بارز في الحفاظ على جزء كبير من إرث الحضارة البشرية، كما تعتبر النصوص المكتوبة بها من أوثق المصادر التاريخية القديمة.

ولم يكن ليُكتب للغة الأكدية ذلك النجاح من دون الكتابة، وقد ظهر أقدم كتابة معروفة في بلاد ما بين النهرين في النصف الثاني من الألف الرابع ق.م. والتي أُطلق عليها اسم الكتابة المسمارية نظراً لشكلها الذي يشبه المسامير. وكان لهذا

النظام الكتابي تأثير كبير في جميع أنحاء الشرق الأدنى القديم، واستمر بالاستخدام حتى نهاية الألف الأول قبل الميلاد لكتابة العديد من اللغات لاسيما السومرية والأكدية.

يهدف البحث وبالاعتماد على المنهجٍ الوصفيّ والتحليلي، إلى إبراز الدور التاريخي للغة الأكدية، ودراسة العوامل التي جعلت منها لغة عالمية تتراسل بها عواصم القوى العظمى، ويتعامل بها القاصي والداني في مراكز الشرق الأدنى القديم. كما ينحى البحث إلى الكشف عن ملامح الصراع اللغوي أو الثقافي الذي ربما تولّد جرّاء احتدام اللقاء بين الأكّدية واللغات الأخرى المعاصرة لها.

وقد تم التركيز في هذا البحث على ثلاثة محاور أساسية، يعرض أولها مدخلاً للغة الأكدية ومراحلها التاريخية، والكتابة المسمارية، ويتعقّب المحور الثاني العوامل التي دفعت باللغة الأكدية نحو التوسع والانتشار والارتقاء إلى تلك المكانة العالمية. فيما ينقّب المحور الثالث في مظاهر التنافس اللغوي والثقافي مع اللغات والثقافات الأخرى في المناطق التي وجدت اللغة والكتابة الأكدية مكانا له فيه، خاتمين البحث بأهم النتائج التي توصلنا إليها.

١ـ اللغة الأكدية والكتابة المسمارية

إن الصلة وثيقة بين النظام الكتابي واللغة المدونة به، حتى أنه من الصعب الفصل بينهما، ومن غير الممكن دراسة اللغة بمعزل عن أسلوب كتابتها بَيْدَ أنّ الكتابة هي وسيلة تدوين اللغة وإيصالها للآخرين بالرموز المكتوبة، كما أن التأثيرات لابدّ أن تكون متنبادلة بين النظام الكتابي واللغة المكتوبة به (التميم، ٢٠١١: ٣١٦).

وقد تعاقبت على بلاد الرافدين منذ مطلع الألف الثالث ق.م. في منطقتي سومر وأكد حضارات متوالية تمتد بجذورها إلى عصور ما قبل التاريخ، ومرت في رحلة تطورها بأدوار حضارية كثيرة منها العصور التاريخية التي بدأت منذ اختراع الكتابة ونشوء المدن ونظام الحكم والفنون، واستمرت في ازدهارها إلى مطلع العهد الميلادي، ومن أبرز هذه الحضارات : السومرية، والأكدية، والبابلية، والآشورية [١] (شكل: ١).

وإذا كانت السلطة السياسية والعسكرية، والنفوذ التجاري لهذه الدول قد امتد بعيداً، فإن امتداد اللغة كان أوسع وأبعد.

١ـ١ـ اللغة الأكدية

اللغة الأكدية هي اللغة العراقية القديمة الثانية بعد السومرية من حيث تاريخ التدوين، وهي لغة معظم النصوص المسمارية المكتشفة. ومصطلح اللغة الأكدية حديث الاستعمال، يرجع إلى أواسط القرن التاسع عشر، وكان أول من استعمله الباحث الانكليزي رولنسون، ١٨٥٢م، غير أنه ورد في النصوص الأكدية للدلالة على لغة الأقوام التي أسست في النصف الأول من القرن الرابع والعشرين ق.م ، في حدود ٢٣٧١ ق.م، المملكة الأكدية.

واستعمل مصطلح اللغة الأكدية في معظم الدراسات الحديثة التي صدرت منذ الخمسينات من القرن الماضي وحتى الآن للإشارة إلى لغة سكان العراق القدماء الرئيسية منذ النصف الثاني من الألف الثالث ق.م، حتى انتهائها بوصفها لغة تخاطب وتدوين في أواخر عصور ما قبل الميلاد[٢].(العبيدي، ٢٠٠٦: ٣٢)

وتمثل اللغة الأكدية بمفهومها الواسع الفرع الشمالي الشرقي من عائلة اللغات السامية [٣]، وتضم هذه العائلة اللغوية مجموعة كبيرة من اللغات التي انتشرت وسادت معظم أنحاء الشرق الأدنى القديم منذ أقدم عصوره التاريخية وحتى الآن، وهي اللغة الأكدية، بلهجاتها البابلية والآشورية المختلفة، واللغة الكنعانية بلهجاتها الأوغاريتية والفينيقة والعبرية، واللغة الآرامية بلهجاتها الآرامية القديمة وآرامية الدولة والآرامية اليهودية والنبطية والمندائية، واللغة العربية الشمالية والجنوبية، وبعض لغات الحبشة. ويذهب بعض الباحثين إلى أن الموطن الأول للأقوام التي تكلمت بهذه اللغات هي شبه الجزيرة العربية. (سليمان، ١٩٨٥: ٢٨٦)

وقد ابتدأت اللغة الأكدية بالظهور قبل نحو أربعة آلاف وثمانمائة عام. وهكذا وجدت نصوص أكدية مدونة منذ نحو (٢٦٠٠ ق.م)، وهي نصوص دونت باللغة الأم قبل تفرعها إلى اللهجتين الرئيستين، البابلية والآشورية اللتان استمرتا في التطور خلال القرون المتعاقبة وعبر المناطق الجغرافية. (حنون، ٢٠١٦: ٢٣٧-٢٣٨). في أواسط الألف الثالث ق.م. وتحديداً بعد قيام المملكة الأكدية في حدود

٢٣٧١ ق.م. تم تدوين اللغة الأكدية بالخط المسماري. وفي فترة العصر السرجوني (شاروكين ٢٣٥٠ – ٢١٤٠ ق.م) أصبحت اللغة الأكدية لغة البلاد الرسمية (العبيدي، ٢٠٠٦: ٢٤)

وتكثر النصوص المكتوبة باللغة الأكدية بعد (٢٣٥٠ ق.م). استمرت كتابة الأكدية حتى القرن الأول الميلادي، على الرغم من أنها اندثرت كلغة محكية في وقت أبكر بكثير. انطلقت اللغة الأكدية من بلاد الرافدين لتغدو لغة مشتركة في منطقة الشرق الأدنى القديم خلال النصف الثاني من الألف الثاني ق.م. حيث أصبحت لغة الدبلوماسية والمراسلات الدولية. وحينما انقسمت اللغة الأكدية جغرافياً إلى لهجتين رئيسيتين، هما البابلية والآشورية؛ استخدمت البابلية أيضاً كلغة رسمية للتبادلات الدولية، كما استخدمت الآشورية في المستعمرات التجارية لاسيما في الأناضول، في كانيش/كول تبة. (Huehnergad, Pat-El. 2019: 95-97)

فاللغة الأكدية تعتبر إذاً من أقدم اللغات السامية وتتميز بخصائص عديدة تتمثل في الرقعة الجغرافية التي غطتها هذه اللغة، وكذلك في كثرة النصوص المدونة بها في مواضيع متنوعة بشكل كبير. وتبعاً لذلك فإن أدب بلاد وادي الرافدين تميز أيضاً من غيره بمزايا وخصائص، جعلته الأدب الأوحد والأقدم في العالم القديم من حيث انتاجه وأصالته وتنوعه. وقد اشتمل على أنواع وتصانيف منه ما يخص القصص و الأساطير والملاحم، وآخر عن الأمثال والحكم والنصائح، وآخر يتعلق بقضايا دينية ومنها ما يعرض الحياة اليومية للسكان وغيرها، وأغلبها يعالج المعتقدات والأفكار. والكثير من النصوص تمتاز بخاصية الازدواج اللغوي(خليل، ٢٠١٥: ١٩٧)

١-٢- المراحل التاريخية للغة الأكدية

بدأ استخدام اللغة الأكدية إلى جانب السومرية مع مجيء الأقوام الأكدية في فترة غير معروفة على وجه الدقة، إلا أن الانتقال من اللغة السومرية إلى اللغة الأكدية حدث بعد أن تم تأسيس الامبراطورية الأكدية وأصبحت اللغة الرسمية هي اللغة الأكدية إلى جانب السومرية. ومن الطبيعي أن الانتقال إلى اللغة الأكدية حدث بصورة تدريجية، فظهرت أولاً مجاميع معينة من النصوص، ولاسيما تلك

الصادرة عن القصر الملكي كالقوانين والنصوص الملكية بصورة عامة، مدونة باللغة الأكدية، وزودت نصوص سومرية بترجمات أكدية بين السطور، كالرقي والتعاويذ. وبدأ استخدام اللغة الأكدية يتسع على حساب تقلص استخدام اللغة السومرية، حتى اقتصر استعمال اللغة السومرية على جوانب معينة من الحياة كالإدارة وأنواع من الآداب وغيرها. (سليمان، ٢٠٠٥: ٤٢)

وأصبح التحول اللغوي إلى الأكدية أكثر وضوحاً بظهور سلالة ايسن ولارسا في أعقاب سقوط سلالة أور الثالثة، ثم قيام سلالة بابل الأولى. وساهم في هذا الأمر وصول الأموريين إلى المنطقة والذين كانوا يتكلمون لغة شبيهة باللغة الأكدية. لكن التحول إلى الأكدية لم يكن كاملاً، حيث حافظ الكتبة على النصوص السومرية ودأبوا على استنساخها كنوع من التقاليد الأدبية الموروثة، كما تمسك مدونو النصوص على ثنائيتهم اللغوية (سليمان ٢٠٠٥: ٤٢).

ومع وصول الأموريين إلى بابل، كما أسلفنا، وبعد العهد الأكدي، تتحول اللغة الأكدية باللهجة البابلية إلى اللغة الرسمية للمملكة بعد انقسام اللغة الأكدية إلى لهجتين أساسيتين: البابلية والآشورية. مع الإشارة إلى أنّ الكاشيين مارسوا دوراً كبيراً في تبني اللغة البابلية النمونجية، والتي أصبحت لغة العالم القديم. غير ناسين أن استخدام الكتابة المسمارية في التدوين شكّل عاملاً قوياً في سرعة انتشار هذه اللغة. (حسين، ٢٠١٩: ١٢٢)

ومرت اللغة الأكّادية خلال تاريخها الطويل بمراحل تطورية متعددة، وانقسمت هذه اللغة في بداية الألف الثاني قبل الميلاد – كما رأينا - إلى لهجتين رئيستين هما البابلية التي سادت في بلاد بابل (الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين)، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى مدينة بابل، والآشورية التي سادت في بلاد آشور (القسم الشمالي من بلاد الرافدين)، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى مدينة آشور. وقد تفرعت كل لهجة من هاتين اللهجتين مع الزمن إلى لهجات فرعية هي حسب التسلسل الزمني: (مرعي، ٢٠١٢: ٣٤-٣٧، كابليس، ١٩٩٥: ٦ رشيد، ٢٠٠٩: ١٣-١٧)

١- الأكدية القديمة : ....- ٢٠٠٠ ق.م (سقوط سلالة أور الثالثة)

استخدمت في جنوبي بلاد الرافدين منذ ظهور الأكاديين في هذه المنطقة في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد وحتى نهاية عصرسلالة أور الثالثة في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد.

٢ -البابلية القديمة : نحو (٢٠٠٠ –١٥٩٥ ق.م) (نهاية العصر البابلي القديم)

سادت هذه اللهجة في بلاد بابل خلال فترة المد الأموري الذي تميز بتدفق الكثير من القبائل الأمورية إلى بلاد الرافدين وسورية، واستيلائها على الحكم هناك وتأسيس العديد من الممالك الأمورية كان أشهرها في بلاد الرافدين السلالة البابلية الأولى التي تمكن حمورابي سادس ملوكها من توحيدها كلها في دولة واحدة هي المملكة البابلية الأولى

٣- البابلية الوسطى : (١٥٩٥ - ١٠٠٠ ق.م)

هي اللهجة التي سادت في بلاد بابل من بداية العصر الكاشي (بداية القرن السادس عشر ق.م. إلى نهاية الألف الثاني ق.م،

٤- البابلية الحديثة : (١٠٠٠ - ٦٢٥ ق.م) حتى نهاية العصر الآشوري الحديث

وهي لهجة مختلفة كثيراً عن لهجة الرسائل والوثائق المعاصرة لها، وكُتبت بها آداب كثيرة حاكت بشكل واضح اللهجة البابلية القديمة.

٥- البابلية المتأخرة (٦٢٥ - ٧٦ ق.م)

وهي لهجة العصورالكلدية والفارسية - الأخمينية والسلوقية .وهي مزيج من اللغتين البابلية والآرامية

٦- الآشورية القديمة : (١٩٥٠ - ١٧٥٠ ق.م)

استُخدمت في العصر الآشوري القديم في بلاد آشور وفي المناطق التي انتشر الآشوريون فيها.

٧- الآشورية الوسطى : (١٥٠٠ - ١٠٠٠ ق.م)

سادت في بلاد آشور في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد.

٨- الآشورية الحديثة : (١٠٠٠ - ٦٠٠ ق.م)

سادت في بلاد آشور في العصر الآشوري الحديث الذي يمثل ذروة قوة الآشوريين وتوسعهم وازدهار دولتهم.

١-٣- الكتابة المسمارية: ٤

إنّ التحول المفصلي في بنية الحضارة الرافدينية القديمة، كان في اختراع الكتابة وسيلة للتدوين حين استعار الكاتب الرافدي تلك القصبة الخالدة وأحال رأسها على شكل مثلث ولامسها بخفة على سطح الطين ٥ فأبدع أول حرف مجرد، لا شيء فيه سوى شكل المسمار. وبتحريك أشكال المسامير وإعادة تشكيلها ولدت ألف علامة وعشرة آلاف مدلول في حراك الفكر الاجتماعي وذلك مدعاة صناعة أول مجتمع متمدن في تاريخ الفكر الحضاري (صاحب، ٢٠١٩: 168).

ففي أواسط الألف الرابع ق.م.، اخترع الإنسان العراقي القديم أول كتابة معروفة في العالم، وهي التي سميت بالكتابة المسمارية. وتشكل آلاف الألواح الطينية المكتشفة والمدونة بهذه الكتابة سجلاً حافلاً نقل لنا لغة العراقيين القدماء، وكثيراً من أفكارهم ومعتقداتهم وعلومهم ومعارفهم[٦] . (سليمان، ١٩٨٥: ٢٧٣)

عُرفت أقدم أطوار الكتابة بالكتابة التصويرية، وتعتمد على تمثل صور الأشياء المراد كتابتها. أعقب نمط الكتابة الرمزية طور الكتابة الصورية، فنمت وتفاعلت قيم الرموز في التداول الاجتماعي، بالتحول من محدودية دلالات العلامات نحو الإعمام، فأصبحت صورة القدم – مثلاً- تعبر عن جملة دلالات من بينها أفعال تقترن بالقدم، مثل قام أو دخل أو ذهب...ومن ثم كانت الخطوة المهمة بحدود عام (٢٤٠٠ ق.م) وذلك برسم حدود الأشكال على هيئة خطوط مسنقيمة تنتهي نهاياتها على شكل رأس المسمار لذلك عُرفت الكتابة في حدود ذلك التاريخ بالكتابة المسمارية، حين ولجت طورها الصوتي المقطعي (شكل: ٢، ٣). فتزامن

ذلك الانتصار الفكري مع اختزال العلامات الصوتية الكثيرة (٢٠٠٠) علامة إلى (٨٠٠) علامة في أواخر العصر السومري المبكر (٢٨٠٠ ق.م). (صاحب، ٢٠١٩: ١٦٩-١٧٢)

إن تبني الكتابة المسمارية من قبل لغات أخرى كان العامل الرئيسي في تطورها؛ ففي حوالي ٢٣٤٠ ق.م، اعتمد سادة البلاد الجدد، الملوك الأكديون، الكتابة المسمارية لتدوين لغتهم السامية (الأكدية). وبحدود نهاية الألف الثالث ق.م. اختفت اللغة السومرية كلغة منطوقة في بلاد الرافدين، واستبدلت بالأكدية. لكن عمق الموروث الثقافي فرض واقع ثنائية اللغة، فكان لابد للكاتب الأكدي من التمكن من اللغة السومرية، حسب المقولة الأكدية التي فحواها: "هل الكاتب الذي لا يعرف الأكدية هو كاتب حقاً ؟" [٧]

وفي حوالي منتصف الألف الثاني ق.م. وبفضل مكانة الثقافة البابلية، انتشر النظام الكتابي المسماري في جميع أرجاء الشرق الأدنى القديم لتدوين لغات مختلفة تنتمي لعائلات لغوية سامية أو هندو أوروبية. وتغلغلت الكتابة المسمارية، خلال تاريخها الطويل، في مناطق تمتد من مصر إلى إيران ومن الأناضول إلى جزيرة البحرين ولاسيما مع استخدام اللغة الأكدية كلغة دبلوماسية دولية، حتى أنّ الملك الحثي أو فرعون مصر – على سبيل المثال – كانا يتراسلان مع أمراء ساحل البحر المتوسط بهذه اللغة. فكان أن انتشر النظام التعليمي لكتبة بلاد الرافدين في جميع أنحاء الشرق الأدنى القديم.

ويكفي أن نقول بأنّ أهمّ ما يخلد ذكر آشور -على سبيل المثال - في تاريخ الحضارة هو مكتباتها، فقد كانت مكتبة آشور بانيبال تحتوي ثلاثين ألف لوح من الطين مصنفة ومفهرسة، وعلى كل واحد منها رقعة يسهل الاستدلال بها عليه (ديورانت، ١٩٧١: ٢٨٤).

ولا نكون مغالين إذا قلنا إن أعظم إنجاز حضاري قدمته بلاد الرافدين في تاريخها القديم، والذي أفادت منه شعوب المنطقة والشعوب المجاورة، هو الخط المسماري الذي كان من أقدم وسائل التدوين التي توصل إليها الإنسان للحفاظ على تاريخه وتراثه ومنجزاته، والذي بقي في الاستعمال عبر مسيرة طويلة من الزمن تزيد على ثلاثة آلاف سنة (عبدالواحد، ١٩٨٢: ١٩٥).

ينبغي القول إن الكتابة المسمارية من حيث كونها اخترعت – على الأرجح – لتدوين اللغة السومرية، قد جاءت علاماتها الصورية والرمزية، ومقاطعها الصوتية مطابقاً بقدر ما هو موجود فيها من مفردات، ومعبرة عن أصواتها، وخالية من العلامات المعبرة عن الأصوات الحلقية والمفخمة، ومن ثم فهي غير ملائمة لتدوين بعض أصوات اللغة الأكدية الحلقية والمفخمة.

وهكذا فعندما أراد الأكديون تدوين لغتهم بالكتابة المتيسرة آنذاك وهي (الكتابة المسمارية) واجهوا عدة صعوبات في التعبير عن بعض أصوات لغتهم، وكان عليهم أن يجدوا طرقاً وأساليب مناسبة، وإجراء تعديلات على نظام الكتابة لتجاوز النقص الحاصل في بعض العلامات المسمارية للتعبير عن أصوات لغتهم. وأدى هذا إلى بعض النتائج السلبية تمثلت بفقدان اللغة الأكدية تدريجياً بعض خصائصها الصوتية في صيغتها المدونة على أقل تقدير (التميم ٢٠١١: ٣٢٧).

وبدأت الكتابة المسمارية بالتراجع خلال النصف الأول من الألف الأول ق.م. حينما دخل الآراميون بلاد الرافدين وأدخلوا لغتهم المكتوبة بأبجدية خطية سهلة التعلم والاستخدام. وينبغي الإشارة هنا إلى أنّ الكتابة كانت قد تطورت لتكون عملية ومبسطة على أيدي الكتاب في مدن الساحل السوري الكنعاني وبخاصة في أوغاريت وجبيل. ففي أوغاريت حيث اعتاد الكتّاب على التعامل بالمسمارية الأكدية - بحكم علاقاتهم التجارية مع بلاد الرافدين وشمال سوريا وآسيا الصغرى- واعتمدوا علامات مبسطة من المسمارية لكتابة لغتهم الأوغاريتية. ثم انتقلت فكرة الأبجدية الأوغاريتية إلى مدن كنعانية أخرى حيث استخدمت في الكتابة، ومنها انتقلت إلى أنحاء العالم المعروف. وعليه يمكن القول إن مصدر الأبجدية الأولى في التاريخ هي هاتان المدينتان الكنعانيتان: أوغاريت وجبيل (الخطيب، ٢٠١٨: ٨٥-٨٦).

وأصبحت الكتابة الآرامية تستخدم في الدووين الملكية الآشورية بجانب الكتابة المسمارية منذ القرن الثامن قبل الميلاد (https://brill.com/view/book/edcoll/9789004398535/BP000005.xml)

٢ـ عوامل ازدهار وانتشار اللغة الأكدية

من بين العوامل المساهمة في توسع اللغة: العوامل الديموغرافية والاقتصادية والعسكرية والثقافية والسياسية. قد تلعب العوامل اللغوية البحتة – إلى حد ما - دورًا معينًا طالما أن العوامل السابقة موجودة. في حين أن النزاعات إن لم تشجع توسع اللغة، فإنها ستؤدي بالضرورة إلى تراجعها، إن لم يكن انقراضها. وفي بلاد الرافدين ساهم الالتحام العسكري في انتشار اللغة الأكدية. وإن توسع اللغة يمكن أن يتم داخل البلد نفسه كما يمكن أن يمتد إلى ما وراء حدوده.[٨]

٢ـ١ـ العامل اللغوي والثقافي

إن القوة الثقافية للغة هي عامل قوي يمكن أن يضمن بلا شك حيويتها. ويشهد على هذا الجانب بالنسبة للغة الأكدية عشرات الآلاف من النصوص التي تم العثور عليها والتي تتضمن نقوشًا ملكية أو نصوصًا أدبية أو دينية أو اقتصادية أو علمية، ولكن أيضًا رسائل أو مخططات. وتكشف هذه الألواح بالتفصيل عن مجتمع بلاد ما بين النهرين وتنظيمه الاجتماعي والأسري وعناصر الحياة اليومية. كما تشهد محتويات المكتبات الكبيرة أيضًا على الثقافة المكتسبة في بلاد الرافدين، في مجالات متنوعة مثل الرياضيات ، والهندسة، وعلم الفلك، وعلم التنجيم، والعرافة، أو الطب.

ويعتبر الانتقال الجزئي من السومرية إلى اللغة الأكدية، كلغة مكتوبة، منعطفاً ثقافياً هاماً، إذ لم تكتف الكتبة بقراءة الأيديوغرامات من أصل سومري والمكتوبة باللغة الأكدية، كما كان يحدث حتى ذلك الحين؛ بل نحا الكتاب إلى نسخ لغتهم السامية، حيث الكلمات متعددة المقاطع (على خلاف السومرية، حيث تسود المقاطع أحادية المقطع). وهكذا سعوا إلى توسيع استخدام العلامات الصوتية، مما جعل الكتابة أقل صعوبة.[٩]

ومن ناحية أخرى، فقد كان سكان بلاد الرافدين سباقين في وضع القوانين، وتظهر الدراسات الأثرية والتاريخية أن الشعوب المجاورة كالإيرانية مثلاً قد تأثرت بالقوانين العراقية. والواقع أن القانون والعدالة والحرية كانت من الأفكار

الأساسية في بلاد وادي الرافدين في كلتا الناحيتين النظرية والممارسة العملية (رشيد، ١٩٧٣: ٧)

ويمكن القول ومن خلال احتكاك اللغة الأكدية باللغات الأخرى ودخول أقوام متعددة إلى بلاد بابل وآشور أنّ كثيراً من المفردات اللغوية الأكدية قد انتقلت إلى لغات تلك الأقوام خاصة وأن اللغة الأكدية كانت لغة علم وأدب، ولغة دين وحياة يومية، دُونت بها جميع العلوم والمعارف التي وضع أسسها العراقيون القدماء. وقد ابتدع الكتبة المصطلحات الفنية والأدبية والقانونية اللازمة لاستيعاب تلك العلوم والمعارف ونقلها بصورة دقيقة. وهكذا كان على الأقوام الأخرى التي أخذت عن العراقيين القدماء تلك العلوم والمعارف أن تستخدم المفردات والمصطلحات العلمية والفنية التي ضمتها اللغة الأكدية، بعد تحويرها ونقلها إلى لغاتها الأصلية. وكان ذلك أوضح ما يكون في أعقاب سقوط بابل عام ٥٣٩ق.م وغزو الأقوام الفارسية واليونانية. وهكذا فإننا لا نعدم وجود عدد من المفردات اللغوية الأكدية في اللغات الفارسية واليونانية وغيرها. (سليمان، ٢٠٠٥: ٤٦) ويكفي أن نعلم كيف أن الأدب السومري والأكدي كان يدرس في مدارس الكتبة في سوزة عاصمة عيلام (خليل ٢٠١٥: ٢٠٥).

في فترة الدولة الگوتية وسيطرتها على بلاد أكد ونهاية الامبراطورية الأكدية، ظلت اللغة الأكدية لغة رسمية إلى جانب اللغة السومرية، واستخدمت في المكاتبات الرسمية والشخصية وفي التخاطب. ويبدو أن الگوتيين أنفسهم ما لبثوا أن استعاروا اللغة الأكدية للكتابة، فحمل بعض حكامهم أسماء ذات صياغة أكدية ولا يظهر أثر للغة الگوتية الأصلية باستثناء بعض أسماء الملوك ومفردات قليلة، ولعل ذلك يشهد على سعة انتشار الأكدية ورسوخها في النفوس وتفوقها في منافسة اللغات الأخرى (سليمان ٢٠٠٥: ٩٧).

مع التأكيد على أن عدم اكتشاف نصوص گوتية لا يعني عدم استخدام اللغة الكوتية.

وإذا توجهنا نحو سوريا، في أوغاريت (رأس شمرا) مثلاً، وألالاخ (تل عطشانة) كان استخدام اللغة الأكدية شائعاً ولا يقتصر على التعاملات الدولية الضرورية فقط؛ ففي ألالاخ تم العثور على نصوص تاريخية، ودينية، ووثائق

قانونية واقصادية، وقوائم ونصوص معجمية فضلاً عن الرسائل. في إحدى المدن السورية، وهي قطنا (المشرفة) كانت الثقافة الرافدية تحتل مكانة رفيعة، حيث أن كاهن معبد نينيكال (وهو معبود بابلي/سومري) كان يقوم بجرد كنوز المعبد باللغة الأكدية. (Labat, 1962: 20).

كما وعثر في مدينة مجيدّو في فلسطين القديمة على إحدى فصول ملحمة جلجامش (خليل، ٢٠١٥: ٢٠٤).

وبالنظر إلى الأسباب الثقافية الأخرى التي ساهمت في توسيع رقعة اللغة الأكدية، يمكن الإشارة إلى الرحلات التي كان يقوم بها الكتّاب الآشوريون والبابليون إلى الممالك المجاورة، حيث تتم دعوتهم واستقبالهم بحفاوة. ولعل الكتّاب المحليين في المدن المختلفة كانوا يحتفظون في أرشيفاتهم بأعمال أدبية أكدية أو على الأقل ما كان متأثراً بالأكدية. ولا شك أنهم كانو على دراية جيدة بعلوم بلاد الرافدين المعاصرة لهم. وهكذا يبدو كيف أن اللغة الأكدية قد فرضت نفسها من المنظور الثقافي.

٢-٢- العامل السياسي

إن اللغة والسياسة مرتبطان ارتباطًا وثيقًا، ولا شك أن السلطة السياسية هي واحدة من أبرز القوى المؤثرة في حياة اللغات. وحتى تستمر اللغة وتزدهر، ينبغي أن تمارس السيطرة على أدوات الحكومة بشكل كامل، وتسعى إلى التفرد في منطقة معينة لتثبت هيمنتها. يمكن أن تتم هذه الهيمنة بسهولة أكبر حينما تتحكم اللغة في دولة ذات سيادة. وغالباً ما يكون تأثير اللغة أضمن في حالة الدولة ذات السيادة، لأن المجموعة اللغوية يمكنها حينذاك التحكم بمصيرها اللغوي. يصف جان لويس كالفي الطبيعة المميزة للغات الدولة بما معناه: اللغات هي السلطة السياسية أو ليست لغات. يمكن للحكومات – من خلال أجهزة الدولة ومؤسساتها التأثير على مصير اللغات وزيادة سلطتها (كالفي، ٢٠٠٨: ٢٣).

وفي كثير من الحالات تتوافق اللغة الرسمية مع لغة الأغلبية السكانية، لكن هذا لا يمنع في بعض الأحيان أن تفرض لغة أقلية قومية على جميع السكان. وفي

الدول التي لا تتطابق فيها اللغة الرسمية مع لغة غالبية السكان، فإن اللغة المفروضة هي لغة النخبة السياسية. شاع استخدام اللغة الأكدية في عدد من البلدان والأقاليم المجاورة والبعيدة حيث أثبتت النصوص المكتشفة في بلاد عيلام في جنوب غربي إيران، وفي آسيا الصغرى (إقليم كبدوكيا)، وفي سورية، ووادي النيل، أن اللغة الأكدية استخدمت، بخطها المسماري، في هذه الأقاليم في الكتابات الرسمية أو الرسائل الدولية في فترات معينة.

وفي بلاد عيلام استخدمت اللغة الأكدية بخطها المسماري منذ أواسط الألف الثالث ق.م. وخاصة في الفترة التي امتدت فيها حدود المملكة لتشمل بلاد عيلام، حتى أن أغلب النصوص المسمارية المكتشفة في العاصمة العيلامية (سوسة) والتي تمت قراءتها حتى الآن جاءت مدونة باللغة الأكدية، مما يشير إلى مدى استخدام هذه اللغة في تلك البلاد، الأمر الذي يشير إلى وجود الأقوام الأكدية في بلاد عيلام بحيث غلب استخدام لغتهم الأكدية الخاصة على اللغة العيلامية المحلية. في حين نرى أن اللغات المحلية في بلاد بابل وآشور ظلت هي السائدة على الرغم من التغييرات السياسية الي مرّت على المنطقة. (سليمان ٢٠٠٥: ١٠٢)

وفي سورية القديمة أيضاً شهدت العديد من المدن والممالك استخدام اللغة الأكدية لا سيما في تدوين المعاهدات والاتفاقات الدولية. وهكذا فإن اللغة الأكدية قد استعملت في التخاطب والتدوين في كل بلاد الرافدين وفي بلاد الشام ومناطق من الخليج العربي فضلاً عن مناطق واسعة من بلاد الأناضول وبلاد فارس، وامتدت إلى مصر. ومع هذا الامتداد الزمني الطويل تفرعت كل من اللهجتين الرئيسيتين للأكدية، أي البابلية والآشورية، إلى لهجات فرعية متعددة، وتطورت أشكال مختلفة للخط المسماري الذي دونت به نصوص هذه اللغة. (حنون، ٢٠١٦: ٢٣٧)

ويظهر جلياً أن اللغة الأكدية قد احتلت مكانة دولية بارزة مقارنة بلغات الشرق الأدنى القديم، فكانت اللغة الأكدية معروفة في البلاط الفرعوني، حيث عُثر في أرشيف أمينوفيس الثالث (١٣٩٠-١٣٥٢ ق.م) وابنه أخناتون (١٣٥٢-١٣٣٤) على رسائل دبلوماسية وشخصية مدونة باللغة الأكدية. ولعل خير دليل

على تلك المكانة أيضاً الرسائل الملكية التي عثر عليها في موقع تل العمارنة، وهي التي كانت تمثل عاصمة الملك المصري اخناتون. وقد كُتبت هذه الرسائل باللغة الأكدية والكتابة المسمارية، من قبل ملوك الممالك السورية والحثية والكشية وأرسلت إلى الفرعون المصري اخناتون. علماً أن اللغة الأكدية لم تكن بالضرورة اللغة الرسمية لبعض هذه الممالك. ويشير هذا إلى تحول اللغة الأكدية في أواسط الألف الثاني ق.م إلى لغة الدبلوماسية والمكاتبات الرسمية الدولية، أي أن الحكام والملوك في الشرق الأدنى القديم قد اعتبروا اللغة الأكدية وسيلة التفاهم بينهم (سليمان، ٢٠٠٥: ٨٣).

إنّ اللغات الأكثر قدرة على التقدم هي تلك التي تتحكم في دولة واحدة على الأقل. كما أشار جان لابونس (Laponce, 1984: 105). لكن لا يمكن للعامل السياسي أن يعمل بمفرده، بل ينبغي تعزيزه بالعوامل الأخرى. فالعامل السياسي أداة قوية للغاية بتوفر العوامل الأخرى العسكرية والاقتصادية والثقافية وغيرها.

٢-٣- العامل العسكري

إن ظاهرة الفتوحات العسكرية تعد عاملاً رئيسياً في توسع اللغة، لاسيما حين تقوم القوة المحتلة باستيعاب الشعب المغلوب. إن لغة الجيش هي لغة القيادة، لغة الحديد ولغة القوة التي لا جدال فيها. يقول اللغوي ماكس وينريتش (١٨٩٤-١٩٦٩): "اللغة هي لهجة مع جيش وأسطول". بعبارة أخرى، لا يرجع نجاح اللغة إلى الظواهر اللغوية فقط، بل لأسباب عسكرية.١٠

تمكن الملك شروكين الأكدي (بداية القرن الثالث والعشرين ق.م) والذي أطلق على نفسه لقب "ملك سومر وأكد"، من توسيع مناطق نفوذه، وشن حرباً على مناطق نائية وبسط سيطرته على الكثير من طرق التجارة في غرب آسيا، ومارس هذا الملك سياسة امبراطورية حقيقية. حينما كان الملوك الأكدّيون يتركون الأمراء المغلوبين على رأس مدنهم كانوا يخضعونهم لمراقبة مستمرة من قبل موظفين أو ضباط من البلاط الأكدي، كما وسعوا إلى السيطرة على أراضي المدن القديمة من خلال إنشاء مؤسسات لمجموعات من جنودهم أو عقارات كبيرة لعمالهم الرئيسيين. ومن أجل ترسيخ فكرة الهيمنة، فقد أضفوا على سلطتهم طابعاً

إلهياً، وبات يتم تمثيلهم بالتاج ذي القرون (وهو رمز القوة الذي كان محصوراً للألوهية).[١١]

وقد كان التأثير الحضاري لوادي الرافدين في العصر الأكدي على عيلام كبيراً، فمن الناحية السياسية والعسكرية شكل عامل ضغط وقوة، رزحت خلاله عيلام تحت نير السلطة الأكدية، وقد دعّم ذلك ترسيخ التأثير الثقافي حيث انتشرت اللغة والكتابة الأكدية في عيلام، واستخدمت لغة ثانية إلى جانب اللغة العيلامية التي كانت تكتب أيضا بخط أكدي، وظهر التأثير الحضاري كذلك في فن البناء (المعابد –الزقورات-والمنحوتات) كما استخدموا الألواح الصلبة كمادة للكتابة على النمط السائد في وادي الرافدين.(سليمان، ٢٠١٧: ٧٠)

ومما لا شك فيه أن الحملات العسكرية لملوك أكد وآشور، والانتصارات البابلية من الأسرة الأولى، قد فتحت الطريق إلى حدّ كبير للتأثير الثقافي لبلاد ما بين النهرين. وحين تراجعت نفوذ امبراطورية أكد، تركت آثار هيمنتها في عيلام وأعالي نهر دجلة. وفي عهد حمورابي تمت السيطرة على أجزاء كبيرة من بلاد الرافدين بقوة السلاح ، وخاصة نحو الغرب (مرعي، ١٩٩١: ٨٤).

ومع ذلك فإن القوة العسكرية وحدها لا تكفي لضمان تفوق اللغة. لكن العوامل الديموغرافية والاقتصادية والعسكرية والثقافية مجتمعة فقط هي التي تضمن هيمنة اللغة.

٢ـ٤ـ العامل الاقتصادي

أثرت التغييرات السياسية التي تزامت مع وصول الأكديين للسلطة على التجارة والصناعة التقليدية، حيث توفرت تسهيلات كثيرة بحكم التوحيد السياسي، وتنوع الموارد. ويتم عادة تقييم القوة الاقتصادية للغة من عدة متغيرات مثل الإنتاج الصناعي، والتبادلات الدولية.

وقد شهدت التجارة في بلاد الرافدين ازدهاراً كبيراً نتيجة التطور الحاصل في مجالي الزراعة والصناعة، وإدخال العجلة وتطوير السفن واستعمال المكاييل، وظهور الكثير من الحِرف مثل النسيج وصناعة الجلود والصناعة التحويلية، منها

الزيوت والنبيذ. إذ نمت التجارة مع أقاليم البحر الأبيض المتوسط والأناضول وشرق إيران وسوريا ولبنان وآسيا الصغرى لاستيراد المعادن والنحاس، وأنواع الأخشاب. كما تم شق القنوات لتسهيل التبادل وتوسيع الأراضي الزراعية، مما كان له أثر في ازدهار وتطور الدولة.١٢

وأولى الآشوريون اهتماما كبيراً بالتجارة مع آسيا الصغرى، لا سيما في إقليم كبدوكيا، في وسط الأناضول، وأقاموا فيها مراكزهم التجارية وعلى رأسها المركز التجاري في كول تبة (كانش القديمة) الذي تبوأ مكان الصدارة بين هذه المراكز، الأمر الذي تشهد به آلاف الألواح الكتابية الآشورية التي كشف عنها التنقيب في هذا الموقع والتي تتضمن كتابات رسمية ونشاطات تجارية. حتى أن بعض الباحثين يرى أن هذه المراكز التجارية هي عبارة عن مستعمرات أقامها الآشوريون للسيادة وفرض النفوذ على آسيا الصغرى. (علي، ١٩٨٤: ٣)

ولا شك أن هذه الجالية الآشورية قد تركت أثرها في لغة السكان المحليين، ويبدو ذلك من خلال اقتباس الكتابة المسمارية من قبل الحثيين فيما بعد١٣ (سليمان، ٢٠٠٥: ١٠٣).

وفي عهد حمورابي، يبدو التأثير الثقافي لمدينة ماري نتيجة طبيعية للنشاط التجاري. وتجارة القصدير، على سبيل المثال، تحدد بوضوح الخطوط الرئيسية لهذا التأثير. فمن الشرق، من عيلام، كانت القوافل تنقلها إلى مدينة ماري ومنها يتم نقلها إلى الغرب باتجاه حلب وكركميش وقطنا.

وكان التجار يسافرون بعيداً للبحث عن المواد الأولية التي يحتاجونها ومقايضتها بالمنتوجات الزراعية والصناعية. كما وكانت الطرق التجارية تنطلق من بابل وآشور في كل الاتجاهات معتمدة خاصة على نهري دجلة والفرات. وقد جد التجار طريقاً سهلاً نحو البحر المتوسط عبر كركميش وحلب وأوغاريت وصولاً إلى الموانيء المصرية والقبرصية. ومنذ عهد ما يعرف بما قبل (العهد السرجوني)، كانت كل من أور، ولارسا، وكيش تمارس تجارة نشطة مع عيلام والمراكز الحضرية في الخليج, في العهد الأكدي، وكانت قوارب (ميلوخا) و (ميجان) و(ديلموم) ترسوا في الموانيء الأكدية.

ويجب أن نضيف إلى ذلك أن التجار الأجانب أنفسهم كانوا يقدمون إلى بلاد الرافدين بغرض التجارة وخلال ذلك كانوا يأخذون معهم ما كانوا قادرين على تعلمه من اللغة الأكدية وأصول الكتابة. وهكذا تنقلت اللغة والكتابة مع البضائع التجارية. (Labat, 1962: 24)

وهكذا، انتعشت التجارة الخارجية من وإلى بلاد الرافدين، ونتج عن ذلك أن انتشر الخط المسماري واللغة الأكدية في الشرق القديم. كما انتقل الكثير من المنجزات الحضارية الرافدية في مجالات الأدب عن طريق التجارة، فضلاً عن العلاقات الثقافية والفتوحات العسكرية إلى مختلف شعوب العالم القديم.(خالفي، ٢٠١٧: ٢٧).

ويمكن القول إذن، أنّ الناتج المحلي والأنشطة الاقتصادية يمكن أن تكون مؤشراً للقوة اللغوية. إنه التأثير المشترك للعدد والتوزيع الديموغرافي، والثروة الجماعية والفردية التي تسمح للغة بالارتقاء في التسلسل الهرمي وإثبات هيمنتها. وتظهر المتغيرات الثقافية بوضوح أن القوة الثقافية للّغة تعتمد بشكل مباشر على القوة الاقتصادية. فلغات الدول الغنية والقوية يمكنها نشر المعارف في مناطق شاسعة.

لكن رغم الدور الكبير للعامل الاقتصادي، إلا أنه لا يمكن اعتباره العامل الوحيد، أو حتى الأهم في عملية انتشار الثقافة الرافدية. ففي أوغاريت كانت التجارة مع مصر ذات حجم أكبر من تلك التي أمكن القيام بها مع بلاد الرافدين البعيدة، ومع ذلك شهدت أوغاريت معرفة واسعة باللغة الأكدية والكتابة المسمارية ولم يتحقق ذلك للغة المصرية والهيروغليفية. فلابد إذاً من تضافر عوامل أخرى.

٢-٥- العامل الديموغرافي والتوزع الجغرافي

يعتبر العامل الديموغرافي أحد أهم العناصر في الحفاظ على اللغة وقوتها. ويرتبط بالعامل الديموغرافي عدد المتحدثين بهذه اللغة، مع مراعاة عامل الخصوبة والتكاثر للمجموعة المتحدثة، ومساحة توزعها الجغرافي. وتواجه أي لغة صعوبة في الاستمرار إذا كان عدد المتحدثين بها قليلاً نسبياً، باستثناء بعض

الحالات التي تصاحبها العزلة الجغرافية. وقد ساهمت هجرة السكان في الماضي في انتشار لغات معينة.

وفي الحالة الأكدية، ونظراً لتزايد عدد المتكلمين باللغة الأكدية بتزايد قدوم الأقوام من الجهات الشمالية الغربية، والغربية يقابلها تناقص عدد السومريين من خلال اندماجهم مع الأقوام الأكدية، بدأت اللغة السومرية تنحصر تدريجياً، في حين ازداد انتشار اللغة الأكدية ودخلت اللغتان في مرحلة صراع. وكتبت الغلبة للأكدية، وبدأ الانتقال من اللغة السومرية إلى اللغة الأكدية تدريجياً ، وإن ظلت اللغة السومرية تستعمل حتى بعد زوالها بوصفها لغة تخاطب ومكاتبات رسمية ولكن على نطاق محدود وعند تدوين نصوص معينة, (العبيدي، ٢٠٠٦: ٣٤)

وظل التوزيع الجغرافي للغات متغيرًا مهمًا في الحيوية اللغوية. وبالتالي، فإن مجموعة كبيرة متحدثة بلغة تتركز في بلد واحد لن يكون لها نفس التأثير العالمي مثل نفس العدد من المتحدثين ولكن موزعين بأعداد كافية في العديد من البلدان. دائمًا ما يكون التوزع الجغرافي للغة القوية أمرًا إيجابيًا، لأنه يمنحها مكانة ووظائف اتصال متزايدة. في حين أن التبعثر الجغرافي يمكن أن يكون قاتلاً للغات الضعيفة، أي تلك التي يمكن أن تعتمد فقط على عدد صغير من المتحدثين. لا سيما إذا كان هذا التبعثر داخل نفس الدولة.

وقد تحقق للغة الأكدية، كما رأينا، هذا الامتداد الجغرافي في أرجاء العالم القديم، وجنت اللغة والكتابة ثمار هذا الانتشار الكبير، فازدهرت وألقت بظلالها على الدول والمدن والمراكز الحضرية القريبة والبعيدة.

كما ويعد التركيز الحضري عاملاً مهمًا في توسع اللغة. إذ تتحول المدينة إلى نوع من المضخة التي تسرع من حركة اللغات الآخذة في الاتساع. هناك عدة أسباب لهذا الدور الذي تلعبه المدينة في نشر اللغة وتعلمها. المدينة هي أولاً وقبل كل شيء المكان الذي يتركز فيه موظفو الخدمة المدنية، كما تعد المدينة أيضًا مركزًا ثقافيًا حيث نجد المؤسسات التعليمية. كما أن المدينة تعتبر مركزاً اقتصادياً ينشر اللغة السائدة والذي، بفضل التبادلات التجارية، يعزز الاتصالات بين المجموعات العرقية.[١٤] وهذا هو الدور الذي لعبته تماماً المدن والمراكز الحضرية الرافدية في الداخل وكذلك خارج حدود الدولة.

وحين يكون هناك شعبان متعادلان في الثقافة، ويزيد عدد أفراد أحدهما على الآخر زيادة كبيرة؛ في تلك الحالة تتغلب لغة الشعب الأكثر عدداً ولا يهم سواء كان هو الغالب أم المغلوب، المستعمِر أو المستعمَر. فانعدام الفرق في النوع يجعل الكم يتحكم. لكن ذلك يحدث بشرط أن تكون اللغتان المتصارعتان من فصيلة لغوية واحدة أو فصيلتين متقاربتين. أما حين يكون الشعب الغالب أكثر رقياً من المغلوب في ثقافته وحضارته وأشد منه بأساً وأكثر نفوذاً، ففي هذه الحال تنتصر لغته وتصبح لغة جميع السكان سواء كانوا المستعمرين أم المستعمرين، حتى ولو كان عد أفراد الشعب الغازي قليلاً، لكن بشرط أن تدوم غلبته وقوته فترة طويلة وأن تكون لغة الشعبين من فصيلة واحدة أو من فصائل متقاربة. ١٥ والحضارات الرافدية المتعاقبة أثبت قوتها وتفوقها وتأثيرها الثقافي في كثير من الميادين، لاسيما فيما يتعلق باللغة.

٣ـ ملامح التنافس اللغوي

٣ـ١ـ مع اللغة السومرية

أصبحت اللغة الأكدية – كما ذكرنا ـ اللغة الرسمية للبلاد إلى جانب اللغة السومرية وأحتلت المرتبة الأولى في كتابة النصوص والقوانين الصادرة عن القصر الملكي، ودخلت طوراً جديداً من حيث استخدامها لتدوين النصوص التاريخية، فضلاً عن المعاملات والمراسلات اليومية، بينما تقلص استخدام اللغة السومرية وتدنت للمرتبة الثانية. إذ اقتصر استخدامها على كتابة نصوص معينة من المناحي الحياتية، كالإدارة وبعض الآداب والتراتيل الدينية، وأخذ استخدام اللغة الأكدية يزداد تدريجياً مع ازدياد أعداد الأكديين واتساع نفوذهم، وبدأ الصراع بين اللغتين السومرية والأكدية (عبدالدائم، ٢٠١٢: ٣٧١).

وكذلك يبدو تأثير اللغة السومرية في اللغة الأكدية واضحاً، لأن الأولى كانت الأسبق في الاستعمال الرسمي والأسبق في التدوين والتعليم، كما ابتدعت الكتابة أصلاً لتدوين اللغة السومرية.

وتأثرت اللغة الأكدية إذاً باللغة السومرية التي عاشت معها واستخدمت إلى جنبها لفترة طويلة جداً، فكان أن دخل الكثير من المفردات السومرية الأصل إلى

اللغة الأكدية واكتسبت صياغة أكدية حتى أصبحت وكأنها أكدية الأصل. كما يظهر تأثير السومرية في بعض الأساليب النحوية، ومن ذلك ورود الفعل في نهاية الجملة. وربما أثّرت اللغة السومرية في أسلوب نطق بعض الأصوات الأكدية وتخفيفها، ولا سيما الأصوات الحلقية والمفخمة. في المقابل دخلت المفردات الأكدية إلى اللغة السومرية منذ أقدم الفترات التاريخية وربما من الفترة السابقة لتدوين أي من اللغتين (سليمان ٢٠٠٥: ٤٤؛ التميم ٢٠١١: ٣٢٣).

وفي فترة السيطرة الگوتية التي تلت العصر الأكدي، فإن أهم ما وصل إلينا من وثائق يكاد ينحصر في الكتابات السومرية لأمراء سلالة لگش الثانية التي عاصرت الجزء الأخير من حكم الگوتيين فضلاً عن المخاريط الطينية التي تسجل منجزات عمرانية لعدد من أمراء هذه السلالة. وعادت اللغة السومرية إلى الواجهة أيضا في عصر سلالة أور الثالثة (٢١١٣-٢٠٠٤ ق.م)، حيث وصلت إلينا مجموعة كبيرة من الوثائق الإدارية والاقتصادية والقضائية المدونة باللغة السومرية. كما تم الكشف عن مجموعة المراسلات الرسمية التي تبادلها عدد من حكام المدن وملوكها، ولا سيما الملك ابي-سين، آخر ملوك السلالة. (العبيدي، ٢٠٠٦: ٢٤). لكن اللغة الأكدية، مع ذلك، ظلت تحتفظ بمكانة بارزة في عهد سلالة أور الثالثة السومرية.

وخلال العصر البابلي القديم (٢٠٠٤- ١٥٩٥ ق.م) – وهي المرحلة التي أعقبت سلالة أور الثالثة – بطل استعمال اللغة السومرية، وحلت محلها اللغة الأكدية والتي أصبحت لغة البلاد الرسمية، ولغة التخاطب اليومي. وعلى الرغم من سيادة اللغة الأكدية على هذا النحو فقد تم تدوين ونسخ نصوص كثيرة باللغة السومرية في هذا العصر، وتمثل هذه النصوص الكتابات التذكارية لملوك سلالة إيسن ولارسا، كذلك النصوص الأدبية والملاحم والأساطير والصلوات والتعاويذ، ومجموعات من الرسائل الشخصية والرسمية. (العبيدي، ٢٠٠٦: ٢٦-٢٧، سليمان، ٢٠٠٥: ٩٧)

بقي أن نقول أن المادة الصوتية في اللغة السومرية تبدو أقلّ غنى منها في اللغة الأكدية، ولعلّ هذا ما دفع الأقوام الأكدية لإجراء بعض التعديلات على

النظام الكتابي ليتمكنوا بعد ذلك من تدوين لغتهم، ويمثل ذلك إحدى الخطوات التي أثرت سلباً في أسلوب نطق بعض أصوات اللغة الأكدية (التميم، ٢٠١١: ٣٣٠).

٣-٢- مع الگوتية والكشّية

لم يستخدم الگوتيون فيما يبدو، لغتهم الأصلية وإن جلّ ما يعرف عن لغتهم هو بعض أسماء الملوك الگوتيين وربما عدد محدود جدا من المفردات اللغوية التي دخلت إلى اللغة الأكدية. ولعل هذا الوضع ينطبق على الكشيين الذين حكموا بلاد بابل فترة طويلة قاربت أربعة قرون (١٦٠٠ – ١١٦٨ ق.م)، حيث أنهم استخدموا اللغة الأكدية السائدة آنذاك على النطاق الرسمي وفي مكاتباتهم الخاصة، وبقيت من آثار لغتهم الأصلية أسماء بعض الملوك وعدد من المفردات اللغوية. ومما يلاحظ على هذه الفترة النشاط الكبير في حركة استنساخ النصوص القديمة، وتدوين النصوص الأدبية، ومحاولة استخدام الكتبة للأساليب الأكدية القديمة المتميزة بأناقتها، وبخاصة في كتابة النصوص الملكية. فقد وصلت إلينا مجاميع مهمة من النصوص الأكدية والمستنسخة في فترة السيطرة الكشية على بلاد بابل. وخلال هذه الفترة انتشر استخدام اللغة الأكدية بخطها المسماري إلى خارج حدود بلاد بابل وآشور، وغدت أشبه باللغة الدبلوماسية التي تفاهم بها حكام الشرق الأدنى القديم وملوكه (سليمان ٢٠٠٥: ١٠١ - ١٠١).

٣-٣- مع العيلامية

وفي العهد الأكدي، اكتسبت اللغة الأكدية مكانة أدبية كبيرة، وانتشرت خارج حدود بلاد الرافدين. حيث تبنت عيلام خط بلاد ما بين النهرين خلال الفترة الأكدية، وباستثناءات قليلة استخدمتها حتى عند الكتابة باللغة العيلامية. إن طريقة الكتابة القديمة المصقولة المستخدمة هي جذابة بشكل كبير من الناحية الجمالية بحيث غدت انموذجا لنقوش الأبنية الضخمة(Britanica Guide, 2011: 57-58).

وجدت الثقافة الرافدية طريقها إلى بلاد عيلام قبل بداية الألف الثاني ق.م. في هذا الوقت استخدم أغلب أمراء سوسة وإمارات أخرى، لغة بلاد الرافدين في نقوشهم الرسمية، ونادرا ما استخدمت اللغة المحلية في الوثائق الرسمية. وسواء

كانت مكتوبة بالأكدية أو العيلامية فإنها استخدمت المقاطع المسمارية ووفقاً للقواعد السارية في بلاد الرافدين. كانت هناك كتابة محلية تعرف بما قبل العيلامية، عثر على شواهد لها في سوسة منذ عصر أوروك أو جمدة نصر، لكن استخدامها كان مقصوراً على الاستخدامات الحسابية لعد الممتلكات الزراعية. كما تم اللجوء أحياناً إلى تدوين نصوص ثنائية اللغة. مهما يكن من أمر، فإن الكتابة المحلية اختفت من الاستخدام، وطغت عليها الكتابة المسمارية. ويبدو إذن أن التنافس بين اللغة الأكدية واللغة المحلية في عيلام كان في أشده أحياناً. وقد استخدم بعض ملوكها مثل (أونتاش گال حوالي ١٢٠٠ ق.م) اللغة الأكدية في نقوشه التذكارية. وبشكل عام حينما كان الكتبة العيلاميون يستعملون الأكدية كانو يظهرون اتقاناً متميزاً لهذه اللغة (Labat 1962: 1-2).

خلال عهد سلالة أور الثالثة، استمر التأثير الثقافي الرافدي. وقد ترك الملك شولگي كتابة نذرية تكريما لإله المدينة. وهي تشابه الكتابات التي تركها الملك نفسه في مدن مثل نيبور، أو لكش، أو أور، بفارق أن شكل العلامات الكتابية تتماثل مع تلك التي تعود لفترات قديمة، وأكثر شبها بالتقاليد السابقة لعصر أكد. ولعل في ذلك إشارة إلى أن هذ الكتابات قد دونت من قبل كتبة محليين أقل تأثراً بالتقاليد المعاصرة.

٣-٤- مع اللغة الحثية

نتيجة للتوسع التجاري الآشوري في الأناضول – كما أسلفنا – ازدهرت مراكز تجارية آشورية هناك. وكانت العلاقات المجتمعية متداخلة نسبياً من وجهة نظر تجارية وثقافية واجتماعية، فالزيجات المختلطة لم تكن نادرة – على سبيل المثال - ونتج عن هذا أن استخدم سكان هذه المراكز اللغة والكتابة الآشورية لتدوين رسائلهم وعقودهم. وبناء على الأخطاء الكتابية والقواعدية القليلة في هذه النصوص يمكن التكهن بأنها من صنع كتبة محليين (سليمان، ٢٠٠٥: ١٠٣).

مع تأسيس الامبراطورية الحثية تغيرت الظروف السياسية بشكل كبير في هذه المنطقة منذ أن كانت اللغة والكتابة الآشورية قد وجدت مكانا لها هناك قبل عدة قرون. وبدأ الحثيون بلعب دور كبير في العلاقات الدولية، واستخدم حكامهم اللغة الأكدية والكتابة المسمارية في تدخلاتهم في الشؤون الدولية السياسية. لقد

كتبوا معظم المعاهدات السياسية مع جيرانهم في ميتاني و مصر، وأمورو، وحلب، بالأكدية. كما كانت الأكدية هي اللغة المستخدمة في المراسلات الدبلوماسية المتبادلة مع كل من مصر وآشور وبابل. وحتى داخل المملكة دونت العديد من الوثائق الرسمية والسجلات بهذه اللغة المستعارة أو ترجمت إليها. علاوة على ذلك دخلت الأكدية في النصوص الأدبية والدينية والطقسية.

ويتضح من هذا الكم من النصوص أن الكتبة الحثيون قد نهلوا من الثقافة الرافدية وقاموا باستنساخ عدد من الأعمال الكبرى بل وتأليف أعمال أصلية بهذه اللغة الأجنبية. في الامبراطورية الحثية كما في أوغاريت، لم تكتف الثقافة الرافدية فقط بمنافسة لغة محلية بل أيضاً مع الكتابة المحلية. كان للحثيين نظام كتابي خاص ذو طابع هيروغليفي تم استخدامه منذ القرن الخامس عشر، ليتوسع استعماله في عهد شوبيليولوما (١٣٩٠ – ١٣٤٠ ق.م) ويزدهر فيما بعد ابتداء من القرن العاشر ق.م. وقد شكلت هذه الكتابة مع الكتابة المسمارية على مدى ثلاثة قرون (١٥٠٠ -١٢٠٠ ق.م) وسيلة للتدوين (Labat 1962: 9-10).

٣-٥- مع الحورية-الميتانية

شكلت ميتاني مع مصر والامبراطورية الحثية القوة الثالثة الكبرى في منطقة الشرق الأدنى، وامتد نفوذها من زاگروس إلى البحر المتوسط وبحيرة وان مرورا بآشور ووصولاً إلى حلب. ونعرف من خلال نصوص العمارنة [١٦]، وبوغاز كوي بأن أن القادة الميتانيين استخدموا الأكدية في علاقاتهم الدولية. كما كشف في نوزي١٧ عدد كبير من النصوص التي تشهد على استخدام اللغة الأكدية.

يبدو أن الميتانيين قد وقعوا تحت تأثير أدب بلاد الرافدين، لكنهم بالمقابل ساهموا في تطوير الإنتاج الأدبي والحفاظ عليه، وبالمقابل فإنهم استفادوا من هذا الميراث لتوسيع نطاق أدبهم، وإضافة مناحي جديدة لثقافة بلادهم. فكان للكتبة الميتانيين دوراً بارزاً في إثراء حضارة المنطقة من وجوه مختلفة. وإذا كان الميتانيون قد استخدموا اللغة الآشورية فإنهم لم يهملوا لغتهم الأصلية، بل استعملوها في مناطقه وفي أرجاء واسعة من سوريا (حسين، ٢٠١٩: ١٢٠-١٢٢).

كما أن الخوريين/الحوريين قد حاولوا المحافظة على تقاليدهم الخاصة بما في ذلك استخدام لغتهم إلى درجة كبيرة، وذلك عندما تغلغلوا في بعض مناطق بلاد الرافدين منذ أواخر الألف الثالث ق.م، وخاصة في الأقاليم المحيطة بمنطقة كركوك (أربخا). وقد ظهرت تلك التأثيرات اللغوية في اللهجة الأكدية المستخدمة في نصوص ذلك الإقليم، وخاصة تلك المكتشفة في نوزي وتل الفخار، واستخدمت فيها الأسماء الشخصية الحورية الأصل (سليمان ٢٠٠٥: ١٠١).

وتجدر الإشارة أخيراً بأنه في سهل رانيا جنوب كوردستان، عثر على نصوص اقتصادية في شمشارا التي تؤرخ عهد الملك (شمشي أدد الأول ١٨١٥-١٧٨٣ ق.م). في هذه البيئة التي غالبيتها المطلقة من الحوريين كانت اللغة والكتابة والخط هي بشكل عام كتلك المستعملة في ماري، وعلى هذا الجانب من الحدود الجبلية الشرقية، في السهل حول بلاد الرافدين يصبح امتداد الثقافة الأكدية على المناطق المحيطة واقعاً ملحوظاً وبتناسق مميز. الحوريون أنفسهم المنتشرون في هذا النطاق الواسع، اندمجوا في هذا القالب العام، واستخدموا المقاطع الأكدية المعاصرة لتدوين لغتهم الخاصة (Labat 1962: 6-7).

٣-٦- مع اللغة الأوغاريتية

خلال النصف الثاني من الألف الثاني ق.م. دخلت اللغة الأكدية في نوع من الصراع والتنافس مع لغات أخرى بدأت بالازدهار في المنطة. وذلك مع انتشارالكتابة بالحروف الهجائية في مناطق من بلاد الشام منذ منتصف الألف الثاني ق.م. ففي أغاريت، مثلاً، كتب الأدب الكنعاني بهذه الحروف الهجائية ذات الشكل المسماري.

وتتألف أبجدية أوغاريت١٨ من ثلاثين حرفاً تكتب بشكل مسماري من اليسار إلى اليمين، وتعتبر هذه الأبجدية من أقدم الأبجديات المعروفة في العالم، وبفضلها حلّ نظام الكتابة الأبجدي محل الأنظمة المقطعية الثقيلة، التي كانت سائدة قبل اختراعها، وكان أصل الأبجديات الفينيقة والإغريقية واللاتينية. لقد أسهم اختراع الأبجدية في انتشار الفكر الإنساني، وتعتبر الأبجدية إحدى أهم الثورات المعرفية الي شهدتها البشرية خلال تاريخها الطويل. وفضلاً عن النصوص المكتوبة باللغة الأوغاريتية؛ عثر على عدد كبير من الوثائق المدونة

باللغة الأكدية التي كانت تشكل مع الأوغاريتية لغة الوثائق الرسمية السياسية والدينية والحقوقية والعسكرية (حيدر، ٢٠٠٣: ٢٩).

وهكذا فقد تم استخدام وسيلتين للتعبير، فكتبت اللغة الأوغاريتية بكتابة محلية، لكن اللغة الأكدية والكتابة المسمارية احتفظتا بمكانة عالية، حيث استعين باللغة الأكدية والكتابة المقطعية في تدوين المراسلات الدولية والوثائق القانونية ومايتعلق بالمناحي الفكرية وغير ذلك. فيما دونت الأعمال الأدبية والدينية غالباً بالأوغاريتية. وفي هذه المدينة، التي كانت تعتبر ميناء عالمياً، وجدت اللغة الأوغاريتية والحورية والمصرية وغيرها، لكن اللغة الأكدية كان لها النصيب الأوفر، حيث دونت بها، الخطابات الخاصة والرسمية، والأحكام الملكية، والمعاملات الاقتصادية، والوثائق القانونية، والاتفاقات الحدودية، والمراسلات مع الممالك المجاورة (الحثية، كركميش، أمورو، قادش، ألخ)، إضافة إلى النصوص الأدبية والمعجمية. وتشهد هذه النصوص على تغلغل الثقافة الرافدية في سائر قطاعات الدولة (Labat 1962: 11-13).

٣-٧- مع اللغة الآرامية

تعتبر اللغة الآرامية إحدى اللغات المهمة في مجال الصراع اللغوي.فقد اتجهت القبائل الآرامية في ثلاثة اتجاهات. فقد حل قسم منهم في وسط الأراضي السورية وكون تدريجياً دويلات اصطدمت بعد ذلك بالدولة الآشورية التي بدأت تتوسع منذ القرن التاسع ق.م. واستوطن قسم ثان الفرات الأوسط والأراضي الزراعية في شمال بلاد الرافدين وكان هو الفرع الذي اصطدم به الآشوريون في بداية الأمر. في حين اتجه قسم ثالث الى مناطق فلسطين والأردن. وقد دخلت اللغة الآرامية في صراع مع اللغة العبرية في أواخر القرن الرابع ق.م. ومع الفينيقية في القرن الأول ق.م. في بلاد الشام. وصارت تتنافس مع اللغة الأكدية في بلاد الرافدين، فلم ينتصف القرن الرابع ق.م. حتى كانت الآرامية قد طغت على جميع الألسن. وهكذا أصبحت اللغة الآرامية لغة التخاطب، ووصلت عنفوانها في الفترة المحصورة بين ٣٠٠- ٦٥٠ ق.م وفي عهد الحكم الفارسي كان لها موقع اللغة العالمية.١٩

وامتدت عصور الآرامية القديمة القديمة بين ١٠٠٠ – ٥٠٠ ق.م ٢٠ ، ويبدو أن اللغة الآرامية أخذت تحل محل البابلية – الآشورية تدريجياً، إذ نجد أن كثيراً من الوثائق التجارية التي كانت تكتب بإحدى هاتين اللغتين قد حوت على ملخص لمحتواها مكتوباً باللغة الآرامية. يشهد هذا على مدى انتشار الآرامية بين الناس في جناحي الهلال الخصيب. لقد جمع الكنعانيون بين المقاطع الهجائية المسمارية والحروف الهجائية، بين الخط التقليدي الموروث، وبين الخط الجديد المبتكر والأسهل، الذي لم يكن له كل هذا الشيوع والصيت الذي للخط التقليدي.

إن الآرامية في هذه الفترة كانت قد أصبحت لغة السواد الأعظم من السكان في بلاد الشام، وباختلاط الآراميين بالآشوريين والبابليين أتيح للآرامية أن تنافس البابلية و الآشورية في الجناح الشرقي لبلاد الهلال الخصيب (أبو عساف ١٩٨٨: ٨١-٨٢).

نجد أن اللغة الآرامية التي كتبت بأبجدية مؤلفة من /٢٢/ حرفاً، على عكس اللغات التي كتبت بالمقاطع الهجائية المسمارية الكثيرة، قد سهلت كتابتها وقراءتها، وسهل تعلمها على الناس، فانتشرت بسهولة ويسر في كثير من البلدان.كما أن القبائل الآرامية كانت قد تغلغلت في بلاد الهلال الخصيب منذ نهاية الألف الثانية ق.م. واندمجت مع سكانه، ووصلت إلى مراكز القيادة في مناطق كثيرة بدون أن تتبنى الخط المسماري في استعماله، بل يفترض أنها قادت السكان إلى تعلم الآرامية، وخاصة سكان الجناح الشرقي لبلاد الهلال الخصيب، الذين لم يتخلوا عن الخط المسماري المقطعي الهجائي مثلما فعل سكان الجناح الغربي .

وزد على ذلك أن الملوك الآشوريين الذين غزوا الدويلات الآرامية في بلاد الشام طيلة القرنين التاسع والثامن ق.م. وهجّروا السكان الآراميين إلى بلاد آشور وبابل ومصر ومقاطعات أخرى، ونقلوا بعضا من سكان هذه المقاطعات إلى بلاد الشام، مما سهل عملية التقارب بين المواطنين الذين استسهلوا اللغة الآرامية على ما يبدو وتعلموها بسرعة، بمعنى أن العوامل السياسية والبشرية قد لعبت الدور الأكبر والأهم في انتشار اللغة الآرامية (أبو عساف ١٩٨٨: ٨٤، سليمان ٢٠٠٥: ١٠٠).

وينبغي الإشارة إلى الهجرات الآرامية التي حدثت خلال القرن الثاني عشر قبل الميلاد، لا سيما في فترة المجاعة التي حدثت في (١١١٤ ق.م)؛ حيث زحف الآراميون على مدن المنطقة، مثل نينوى وكيليزو ومدينة إيدو في سهل كويسنجق، الأمر الذي ساهم منذ البدء في تغلغل الآرامية (https://brill.com/view/book/edcoll/9789004398535/BP000005.xml).

ـ مقاربة تحليلية وخاتمة

تعتبر اللغة الأكدية من اللغات التي وجدت طريقها إلى العالمية ولا سيما خلال الألف الثاني ق.م، حيث شاع استخدامها – إلى جوار الكتابة المسمارية ـ في المناطق التي كانت تشكل جزءا من العالم القديم انطلاقا من بلاد الرافدين. وقد تم تبني هذه اللغة طواعية من قبل الدوائر السياسية، والشخصيات الفاعلة في ذلك الوقت. لقد تم توسع اللغة الأكدية والكتابة المسمارية وفق مراحل متتالية بطرق مباشرة أو غير مباشرة. كان فرض الأكدية في بعض المناطق وفي بعض العصور سهلا، لكنها واجهت تحدياً من التقاليد المحلية في مناطق أخرى.

في حدود القرن التاسع عشر ق.م. شهدت منطقة الأناضول استيطاناً لافتاً للثقافة الأكدية، ففي هذه البيئة الآسيوية أسس الآشوريون مراكز مزدهرة. ونلحظ من خلال الأرشيف الذي خلفوه كيف تم فرض اللغة والكتابة الأكدية على السكان الأصليين. ولعلّ هؤلاء، وقبل وصول الآشوريين، كانوا يجهلون استخدام الكتابة، فكانت اللغة الآشورية والكتابة المسمارية الأدوات الوحيدة في المعاملات الكتابية، ليس فقط بين الآشوريين والسكان الأصليين، بل بين هؤلاء السكان أنفسهم. بحيث يمكن القول بأنه حتى بداية الألف الثاني ق.م. كانت الأناضول وكذلك عيلام منطقتين واسعتين لامتداد الثقافة الرافدية. في وقت لاحق، وخلال عهد الملك حمورابي، اتسع التأثير الرافدي على نطاق أوسع ليشمل كل مناطق الجوار. من آشور وبابل إلى عيلام وكوردستان وماري وأعالي الفرات وشمال سوريا وصولاً إلى شواطيء البحر المتوسط.

في نهاية عهد السلالة البابلية الأولى، تغيرت الأوضاع السياسية في الشرق الأدنى القديم، إذ فقدت آشور وبابل الهيمنة السياسية لصالح قوى جديدة كالميتانيين والحثيين والمصريين. لكن الملفت للانتباه خلال هذه الفترة هو أن بلاد الرافدين لم تفقد هيمنتها الثقافية، بل اتسع نطاقها في الشرق القديم أكثر من أي وقت مضى. وخير دليل على ذلك المجموعة الكبيرة من المراسلات في تل العمارنة باللغة الأكدية، وهي التي استقبلها الفرعون أو الملكة وسيدات القصر والموظفون من الملوك الحثيين والميتانيين، ومن آشور وبابل ومن مدن سوريا وفلسطين وغيرها. كما كان هناك العشرات من الممالك والمدن في سورية وفلسطين التي كانت النخبة السياسية فيها تستخدم الأكدية في مراسلاتها، سواء مع الفرعون المصري أو الموظفين المصريين المقيمين في آسيا.

في بعض الفترات، ولاسيما ابتداءً من القرن الخامس عشر ق.م.، لم يعد استخدام الأكدية مؤشراً على الغلبة السياسية، بل تم تبنيها طواعية من قبل الدول القوية والقوى العظمى في الساحة السياسية في الشرق الأدنى كوسيلة للتفاهم الدولي وكلغة مشتركة للثقافة. وترتب على هذا أن الركائز اللغوية، والمصادر المعرفية المتنوعة، والمستوى التعليمي للكتّاب المحليين، توحدت جميعها لتضفي على اللغة والكتابة تنوعاً إقليمياً لم يكن موجوداً سابقاً. وهذا يدل ربما أن القوة السياسية والامتداد الثقافي لا يسيران دائماً جنباً إلى جنب ولا يعملان بوتيرة واحدة.

ربما أشار استخدام اللغة الأكدية والكتابة المسمارية في سائر الشرق الأدنى القديم إلى شكل من النشاط الفكري الذي يثري الثقافات المحلية، في الوقت ذاته الذي يعزز الثقافة الرافدية. كان الكتّاب بتبنيهم للكتابة المسمارية إنما يتبنون طريقة معينة في التفكير، ورصيداً معرفياً، وسبلاً للتفسير والتحليل، ولم يكن لمجرد تلبية حاجات آنية. نعم لقد امتد استخدام اللغة الأكدية إلى أرجاء الشرق القديم، لكن هذا الاستخدام يظهر في صبغة محلية، يمكن تمييزها تبعاً لتوزعها الجغرافي، ويسري هذا الأمر على الكتابة أيضاً.

ولا شك أن الحملات العسكرية ومعها كل التدابير السياسية والاستراتيجية التي اتخذتها الامبراطوريات المتعاقبة في بلاد الرافدين قد ساهمت في انتقال

الثقافة وانتشارها على اوسع نطاق؛ لكنها في الواقع لم تكن العامل الوحيد. فلننظر إلى الميتانيين كيف تمكنوا، وبطرق سلمية غالباً، من نقل معارفهم الرافدية، لا سيما اللغة والكتابة، إلى الأرجاء الواسعة التي امتدت إليها نفوذهم. وإذا عرفنا كيف أن الحثيين أيضاً قد اعتمدوا هذه اللغة في مناطق سيطرتهم، وأنّ المصريين أنفسهم قد أبدوا نوعاً من الالتزام بالتعامل بهذه اللغة؛ نفهم حجم الانتعاش الذي شهدته اللغة الأكدية، وكيف أنها فرضت نفسها كلغة "الدبلوماسية" الدولية. أضف إلى ذلك الدور الكبير الذي مارسته العلاقات التجارية في ربط أجزاء ذلك العالم القديم، ونسج شبكة واسعة من الاتصالات، من عيلام إلى البحر المتوسط والتي شكلت بلاد الرافدين مركزاً ومنظماً لها.

إن الثقافة الرافدية كلغة وككتابة قد امتد بريقها إلى مناطق شاسعة من العالم القديم، واحتلت اللغة الأكدية مكانة وأهمية كبيرة بين لغات الشرق الأدنى القديم، وتحقق لها انتشار واسع بحيث أثرت تأثيراً واضحاً، وبنسب متفاوتة، في اللغات الأخرى، المحلية والأجنبية ، من التي احتكت بها أو نافستها أو عاشت معها جنباً إلى جنب. وفي الوقت نفسه، تأثرت اللغة الأكدية بتلك اللغات، فتأثيرات اللغات الأجنبية تبدو جلية في الوثائق الأكدية التي دونت خارج حدود بلاد الرافدين الأصلية، كتلك التي وجدت في إقليم كبدوكيا في آسيا الصغرى أو في عيلام أو في العمارنة في وادي النيل، فلا شك أن كتّاب تلك المناطق كانوا خاضعين لتأثير لغاتهم المحلية. فحملت نصوصهم سمات خاصة ولهجات مختلفة قليلاً عن لغة المدونات الأكدية من الفترة ذاتها والتي دونت في بلاد الرافدين نفسها. وربما كان للغة والكتابة مصائر مختلفة أحياناً، تتداخل مناطق توسعها أحياناً، وتتباعد أحيانا، فاستعارت شعوب أخرى الكتابة المسمارية لتدوين لغاتها الخاصة. يمكن الافتراض إذن، أنّ هذه اللغة العالمية تظهر اختلافات متفاوتة تبعاً لمناطق استخدامها المتباعدة، لكن الوحدة العامة لها هي أكثر ثباتاً من بعض تلك الخصائص المحلية التي يمكن أن نلحظها، ولعل ذلك التأثر والتأثير لا يشذ عن قوانين تطور اللغات.

المصادر والمراجع

أولاً: العربية

- أبو عساف، علي، ١٩٨٨، الآراميون، تاريخاً ولغة وفناً، طرطوس: دار أماني.

- إسماعيل، فاروق، ٢٠١٠، مراسلات العمارنة الدولية، وثائق مسمارية من القرن ١٤ ق.م.سلسلة دراسات آثارية (٤) دمشق: دار إنانا للطباعة والنشر.

- التميم، عبدالله علي محمد، ٢٠١١، أثر الكتابة وفك رموزها على أسلوب نطق اللغتين السومرية والأكدية، مجلة جامعة تكريت للعلوم، مجلد ١٨، عدد ٤، ص: ٣١٤-٣٣٧ .

- حسين، صلاح الدين باقي، ٢٠١٩، پەیوەندی شارستانی نێوان باشوری وڵاتی دوو ڕووبار وباشور و ڕۆژئاوای کوردستان (ئاین، هونەر، ئەدەب بە نموونە) لە نێوان سەدەی ١٨-١٢ پ.ز. رسالة ماجستير غير منشورة، فاكلتي الآداب-جامعة سوران.

- حنون، نائل، ٢٠١٦، اللغتان السومرية والأكدية، بيروت: المركز الأكاديمي للأبحاث.

- حيدر، جمال حسن: ٢٠٠٣، أغاريت، التاريخ والآثار، اللاذقية: دار المرساة.

- خالفي، جميلة: ٢٠١٧، التعليم والمدارس التعليمية في بلاد الرافدين، اطروحة دكتوراه، كلية العلوم الانسانية، جامعة الجزائر ٢.

- الخطيب، محمد، ٢٠١٨، الحضارة الفينيقية، دمشق: دار علاء الدين للنشر والطباعة.

- خليل، صباح جاسم حمادي، ٢٠١٥، أثر أدب بلاد الرافدين في الآداب العالمية القديمة، مجلة الأستاذ (المؤتور العلمي الثالث ٢٠١٥م-١٤٣٦هـ)، ص ١٩٧-٢١٠.

- ديورانت، ول وايرل: ١٩٧١، قصة الحضارة، الشرق الأدنى، تر: محمد بدران، جزء ٢، مج ١، بيروت: دار الجيل.

- رشيد، فوزي، ١٩٧٣، الشرائع العراقية القديمة، بغداد: دار الحرية للطباعة، مطبعة الجمهورية.

- رشيد، فوزي، ٢٠٠٩، قواعد اللغة الأكدية، دمشق: دار صفحات للدراسات والنشر.

- سليمان، عامر، ١٩٨٥، التراث اللغوي، حضارة العراق، ج١، بغداد: دار الحرية للطباعة والنشر.

- سليمان، عامر ، ٢٠٠٥، اللغة الأكدية، البابلية – الآشورية، دار ابن الأثير للطباعة والنشر- جامعة الموصل.

- سليمان، صبا علي، ٢٠١٧، الحضارة العيلامية وعلاقتها بحضارات وادي الرافدين من بداية الألف الثالث حتى منتصف الألف الثاني ق.م، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، كلية الآداب ، جامعة تشرين.

- صاحب، زهير: ٢٠١٩، تاريخ الفن في بلاد الرافدين، دراسة في فنون عصور قبل الكتابة والفنون السومرية، ج١، بيروت: الرافدين

- عبدالدائم، علاء، ٢٠١٢، الصراع اللغوي بين الحضارات السامية القديمة، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، مجلد٢، عدد١، ص ٣٦٢-٣٩١.

- عبدالواحد، علي، ١٩٨٢، الخط المسماري واللغة الأكدية: اثنان من أبرز العوامل المشتركة بين الحضارات القديمة في الوطن العربي، مجلة كلية الآداب – جامعة بغداد، عدد ٣٢، ص: ١٩١-٢٠٤ .

- العبيدي ، خالد حيدر عثمان، ٢٠٠٦، اللغة السومرية وأثرها في اللغة الأكدية، اطروحة دكتوراه، جامعة الموصل.

- علي، محمد عبداللطيف محمد، ١٩٨٤، المراكز التجارية الآشورية بوسط آسيا الصغرى في العصر الآشوري القديم (من أواسط القرن العشرين إلى أواسط القرن الثامن عشر ق.م)، كلية الآداب – جامعة الاسكندرية

- فيزهوفر، يزف، ٢٠٠٩، فارس القديمة، التاريخ، الحضارة، العبادات، الإدارة، المجتمع، الاقتصاد، الجيش، تر: محمد جديد،بيروت: قدمس للنشر والتوزيع.

- قابلو، سيف الدين جباغ، ٢٠٢١، دمشق الآرامية، التشكل والاسم والمعنى والتاريخ، مجلة تاريخ دمشق، ع١، ص١٠-٤٠.

- كابليس، ريتشارد، ب. ت. مقدمة تمهيدية للغة الأكادية، ترجمة عبد الرحمن دركزللي (١٩٩٥)، جامعة حلب..

- كالفي، جان لويس، ٢٠٠٨، حرب اللغات والسياسات اللغوية، تر: حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،

- مرعي، عيد، ١٩٩١، تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور حتى عام ٥٣٩ ق.م، دمشق: الأبجدية للنشر.

- مرعي، عيد، ٢٠١٢، اللسان الأكدي، موجز في تاريخ اللغة الأكدية وقواعدها، وزارة الثقافة، دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب.

ثانياً: الأجنبية

- Huehnergad J, Pat-El Na'ama. 2019, The Semitic Languages, 2nd Edition, London and New york: Roultledge, taylor & Francis Group

- Labat, R. (1962). Le rayonnement de la langue et de l'écriture akkadiennes au deuxième millénaire avant notre ère. Syria 39 (1/2), 1-27. Retrieved September 6, 2021, from http://www.jstor.org/stable/4390384

- Laponce, Jean, 1984, Langue et territoire (CIRAL).

- Leemans, W, F, 1960, Foreign Trade in the Old Babylonian Period as Revealed by Texts from Southern Mesopotamia. (*Studia et Documenta ad jura Orientis Antiqui Pertinentia*, Vol. VI.) Leiden: E. J. Brill, 1960. Pp. vii, 196

- The Britanica Guide to Ancient Civilization, 2011, Mesopotamia, the worlds earliest civilization.

المراجع الألكترونية

- https://www.larousse.fr/encyclopedie/autre-region/M%C3%A9sopotamie/132908

- تم التصفح في ٢٠٢١/١٠/٢٦

- https://www.larousse.fr/encyclopedie/images/La_M%C3%A9sopotamie_ancienne/1011158

- تم التصفح في ٢٠٢١/١٠/٢٦

- http://classes.bnf.fr/ecritures/arret/lesecritures/cuneiforme/05.htm

- تم التصفح في ٢٠٢١/٨/١٢

- https://elaph.com/Web/Culture/2008/11/380357.html

- تم التصفح في ٢٠٢١/٨/١٢
- http://ressources.louvrelens.fr/EXPLOITATION/mesopotamie-4.aspx
- تم التصفح في ٢٠٢١/٨/٨
- https://www.axl.cefan.ulaval.ca/Langues/2vital_expansion.htm
- تم التصفح في ٢٠٢١/٩/٨
- (الجعفر، ٢٠٠٨، اللغات السامية في العراق، مقاربة لسانية معاصرة) https://elaph.com/Web/Culture/2008/11/380357.html
- تم التصفح في تموز/٢٠٢٢
- https://brill.com/view/book/edcoll/9789004398535/BP000005.xml

الأشكال:

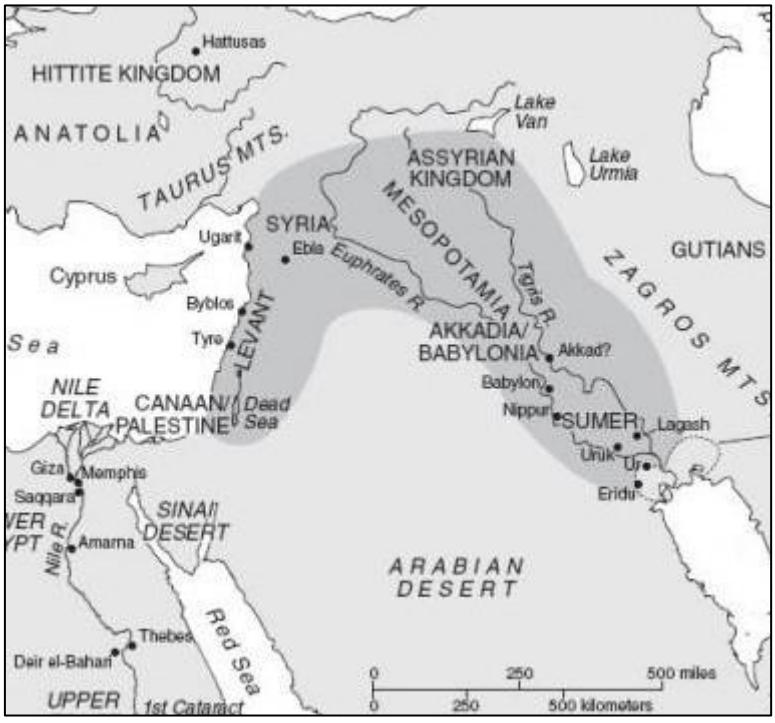

شكل ١: خارطة الشرق الأدنى القديم [٢١]

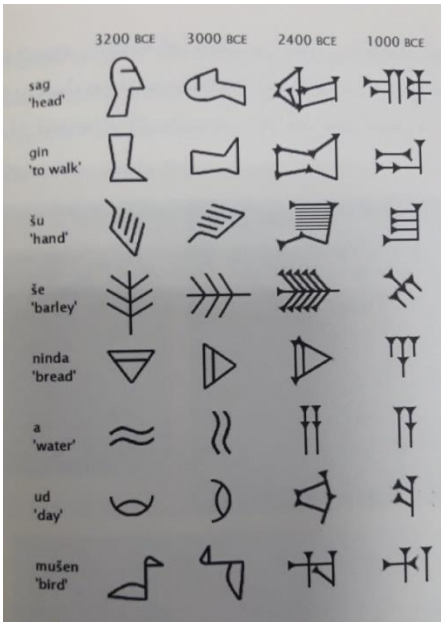

شكل ٢: تطور الكتابة من الصورية إلى المقطعية المسمارية (صاحب ٢٠١٩: ١٧٢)

شكل ٣: الكتابة الصورية والرمزية (صاحب ٢٠١٩: ١٧١)

الهوامش

[١] سومر هو الاسم الأصلي للسومريين وهي منطقة تقع في جنوب العراق في السهل الرسوبي الذي تكون بفعل نهري دجلة والفرات. يرجع ظهور السومريين إلى حوالي الألف الرابع ق.م. وهم بذلك من أوائل الشعوب الذين استقروا في الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين. (خالفي، ٢٠١٧: ٢٨)

[٢] شاع مصطلح اللغة الأكدية في الوقت الحاضر، إلا أن الباحثين الأجانب الرواد أطلقوا على لغة النصوص المكتشفة في بلاد الرافدين ما عدا النصوص السومرية، اسم اللغة الآشورية، نسبة إلى بلاد آشور، إذ كانت أول النصوص المسمارية التي وصلت إلى أوروبا قد اكتشفت في القسم الشمالي من بلاد الرافدين في المنطقة التي كانت تعلرف قديماً ببلاد آشور ، في حين سميت لغة النصوص المسمارية المكتشفة في بلاد بابل باللغة البابلية، وعندما توضحت أوجه الشبه بين الاثنين وتبين أن اللغتان تمثلان لهجتين من لهجات لغة واحدة أطلق الباحثون عليهما اسم اللغة البابلية- الآشورية أو اللغة الآشورية البابلية، في حين ظل يطلق على العلم الذي اختص بدراسة هذه اللغة ونصوصها المسمارية اسم علم الآشوريات (Assyriology) والذي ظل متداولاً حتى وقتنا الحاضر. (العبيد ٢٠٠٦: ٣٢)

[٣] يميل بعض الباحثين إلى إطلاق تسميات أخرى على مجموعة اللغات السامية مثل (اللغات الجزرية) (سليمان، ١٩٨٥: ٢٨٦)

[٤] إن حلّ ألغاز نقش بيستون المتعدد اللغات في ميديا والذي يسرد إنجازات الملك داريوس، جرّ وراءه حلّ ألغاز سائر نظم الكتابة المسمارية، وبالتالي فهم اللغات الكلمنة وراءها، (فيزهوفر، ٢٠٠٩: ٣٢)

[٥] كان الكتاب يكتبون بالخط المسماري على ألواح من الطين الرطب بقلم ذي طرف شبيه بالمنشور الثلاثي أو الإسفين. فإذا امتلأ اللوح كتابة جففوه أو حرقوه، فكان بذلك مخطوطاً طويل البقاء. (ديورانت، ١٩٧١: ٢٣٥)

[٦] http://ressources.louvrelens.fr/EXPLOITATION/mesopotamie-4.aspx

[٧] Béatrice André-Salvini, L'expansion de l'écriture cunéiforme (http://classes.bnf.fr/ecritures/arret/lesecritures/cuneiforme/05.htm)

[٨] https://www.axl.cefan.ulaval.ca/Langues/2vital_expansion.htm

[٩] https://www.larousse.fr/encyclopedie/autre-region/M%C3%A9sopotamie/132908

[١٠] https://www.axl.cefan.ulaval.ca/Langues/2vital_expansion.htm

[١١] https://www.larousse.fr/encyclopedie/autre-region/M%C3%A9sopotamie/132908

[١٢] للاطلاع بشكل أوسع على النشاط التجاري الخارجي في بلاد الرافدين، ينظر:

Leemans, W, F, 1960, Foreign Trade in the Old Babylonian Period as Revealed by Texts from Southern Mesopotamia. (*Studia et*

Documenta ad jura Orientis Antiqui Pertinentia, Vol. VI.) Leiden: E. J. Brill, 1960. Pp. vii, 196

[١٣] وكنموذج آخر عن دور التجارة في انتشار اللغة، يمكن الإشارة إلى الفينيقيين الذين سيطروا حوالي ١٢٠٠ قبل الميلاد على كل التجارة في البحر الأبيض المتوسط ، والتي ضمنت تفوق لغتهم لبضعة قرون ؛ حتى أن الإغريق تبنوا الكتابة الفينيقية ونقلوها إلى الرومان ، الذين أنتجوا الأبجدية التي يستخدمها نصف البشرية اليوم.

[١٤] https://www.axl.cefan.ulaval.ca/Langues/2vital_expansion.htm

[١٥] https://elaph.com/Web/Culture/2008/11/380357.html

[١٦] الرسائل (١٧ -٣٠) ينظر اسماعيل ٢٠١٠.

[١٧] مدينة نوزي تقع جنوب الزاب الصغير ليس بعيداً عن أرابخا (كركوك)

[١٨] تقع مدينة أوغاريت (رأس شمرا) قرب مينة اللاذقية على الساحل السوري، أسفرت أعمال التنقيب فيها عن اكتشاف حوالي خمسة آلاف من الرقم الكتابية

[١٩] (الجعفر، ٢٠٠٨، اللغات السامية في العراق، مقاربة لسانية معاصرة) https://elaph.com/Web/Culture/2008/11/380357.html

[٢٠] يرد ذكر الآراميين في عهد الملك الآشوري تيغلات بلاصر الأول (١١١٥ – ١٠٧٦ ق.م) الذي اضطر إلى خوض صراع طويل معهم ومهاجمتهم في مواطنهم الأصلية في البادية السورية . وقد ترك هذا الملك عددا كبيراً من النصوص التي تتحدث عن حروبه هذه. (قابلو، ٢٠٢١: ١٥)

[٢١] http://web.cocc.edu/cagatucci/classes/hum213/Maps/Maps2HistoryAncient.htm

پوختە

شارستانیەتی سومەری لە باشوری وڵاتی دوو ڕووباردا گەشەی سەند، گرنگترین داهێنانی ئەم شارستانیەتە بریتی بوو لە داهێنانی نوسینی مێخی لە کۆتایی هەزارەی چوارەمی پێش زایین. بەڵام دەسەڵاتی ئەکەدییەکان ڕووی لە زیادبوون کرد، توانیان دەست بەسەر وڵاتی سومەردا بگرن، بەتایبەتیش لەلایەن پاشا شاروکین(٢٣٧١-٢٣٥٠ پ.ز)ی دامەزرێنەری دەوڵەتی ئەکەدییەوە، لەو کاتەوە زمانی ئەکەدی ڕێگای زاڵبوونی خۆی دۆزیەوە و بووە زمانی پەیوەندیە سیاسیەکان. سەرباری ئەوەی کە زمانی کاروباری کارگێڕی بوو. بارودۆخ تاکو سەدەیەک بەمشێوەیە مایەوە، تاکو سومەرییەکان توانییان دەسەڵاتی گوتییەکان لە دەوروبەری ساڵی (٢١٣٠ پ.ز) لە وڵاتی سومەر کۆتایی بێیینن، وسەردەمی زیندووبوونەوەی سومەری لەگەڵ ئیمپڕاتۆریەتی ئوری سێیەم دەستی پێکرد، ئەمەش بووە هۆکاری ئەوەی زمانی سومەری جارێکی تر بگەشێتەوە وبتوانێت پێگەی خۆی لەتەک زمانی ئەکەدیدا بەدەست بهێنێتەوە. کاتێکیش ئەموریە زمان سامیەکان دەستیان بەسەر کاروباری وڵاتی دوو ڕووباردا گرت، زمانی ئەکەدی بەگشت شێوەزارە جیاجیاکانیەوە پێگەی سەرەکی خۆی بەدەست هێنایەوە. بەم شێوەیە زمانی ئەکەدی وەکو زمانی پەیوەندیە سیاسیەکان ونامەگۆرینەوە دبلۆماسیەکان لە خۆرهەڵاتی نزیکی کۆندا خۆی سەپاندووە. ئەم تویژینەوەیە باس وشیکردنەوەی ئەو بارودۆخە لەخۆدەگرێت، کە وایکرد ئەم زمانە بگاتە لوتکە لە ناوچەکەدا، لەگەڵ گرنگترین ئەو هۆکارانەی ڕێگا خۆشکەربوون بۆ بڵاوبوونەوە وفراوانبوونی. هەروەها ئەم تویژینەوەیە تیشک دەخاتە سەر سیماکانی ململانێی زمانەوانی، کە لەوانەیە لەنێوان زمانی ئەکەدی وزمانە هاوسەردەمەکانیدا ڕووی دابێت.

Abstract

The Sumerian civilization flourished in southern Mesopotamia, and one of their most important cultural products was the inventions of cuneiform script at the end of the fourth millennium BC. However, the influence of the Akkadians began to increase, and they managed to control Sumer, especially by their first Sargon (2371-2350 BC) the founder of the Akkadian dynasty. The Akkadian language found its way to control as well, so it became the official language in political relations and administrative affairs. The situation continued in this way for about a century until the Sumerians returned to the forefront of power around (2130 BC.), the Sumerian language revived again and regained its position alongside the Akkadian language. With the control of the Amorites whom were also Semitic-speaking people in Mesopotamia, the Akkadian language (with its various dialects) regained its hegemony and established itself as the language of political relations and diplomatic correspondence in the ancient Near East. This research studies with description and analysis of the conditions that created this language to occupy a leading position in the ancient Near East, and the most important factors that contributed to its spread and the extension of its glory. This research also monitors aspects of the linguistic conflict that may have raged between the Akkadian and its contemporary languages.